أسباب التنافر بين اللسانيات العربية الأصيلة واللسانيات الوافدة

***عيشي إبراهيم**

مدرس بالتعليم الثانوي – باحث في اللسانيات النظرية ـ المغرب.

*البريد الإلكتروني: aichibrahimbrahim@gmail.com

الاستلام	٢٠٢٤/2/15	المراجعة	٢٠٢٤/٣/١٠	القبول	٢٠٢٤/٣/٢٠	النشر	٢٠٢٤/٤/1

الملخص:

تناقش المقالة قضية من أعقد القضايا وأكثرها تأثيرا في مسير اللسانيات العربية الحديثة والعاصرة؛ حيث إنها تسعى إلى النظر في الأسباب الموضوعية التي أسهمت بشكل رئيس في حدّة الصراع المعمِّر طويلا بين اللسانيات العربية الأصيلة واللسانيات الوافدة، تحديدا وقت اقتحام المنقول اللساني الثقافةَ اللسانية العربية في أواسط القرن العشرين، لينتج عنه اضطراب بين اللسانيين أدى إلى انقسام حادٍّ بينهم؛ حيث ارتضى بعضهم الاستمساك باللسانيات العربية الأصيلة دون طلب معرفة غيرها، والبعض الآخر أعلن القطيعة معها جملة والاكتفاء باللسانيات الوافدة فقط، في حين حاولت جهة ثالثة التوفيق بين الاتجاهين؛ من خلال الجمع بينهما، وهو ما زاد الوضع اللساني العربي تأزما إلى أزمته، ورفع من منسوب التنافر دون إيجاد أرضية حقيقية تخرج اللسانيات العربية مما هي عليه.

الكلمات المفتاحية:

اللسانيات الوافدة، اللسانيات الأصيلة، التنافر، التوفيق المعرفي.

The Reasons Behind Authentic Arabic Linguistics and Foreign Linguistics Contention

Aichi brahim *

*Email:aichibrahimbrahim@gmail.com

Received	15/2/٢٠٢٤	Revised	١٠/٣/٢٠٢٤	Accepted	٢٠/١٣/٢٠٢٤	Published	١/٤/٢٠٢٤

Abstract:

This article discusses one of the most complex and influential issues in the course of modern and contemporary Arabic linguistics. It seeks to look into the objective reasons that contributed mainly to the intensification of the long-standing conflict between authentic Arabic linguistics and imported linguistics; specifically, at the time of the intrusion of linguistic transmission into Arabic linguistic culture in the middle of the twentieth century. This resulted in a turmoil among linguists, and consequently led to a sharp divide between them. Some of them confined themselves to the authentic Arabic linguistics without seeking to know anything else. Others declared a complete break with it and were satisfied with the imported linguistics only. The third party on the other hand tried to create a conciliation between the two trends by combining them. This divide added to the crisis of Arabic linguistics and raised the level of dissonance without finding a real basis to settle it.

Key words:

Foreign Linguistics, Authentic Linguistics, Contention.

المقدمة:

شكّلت اللسانيات الوافدة إلى الثقافة اللسانية العربية الحديثة في أواسط القرن العشرين نقطة تحول هامة في الخطاب اللساني العربي؛ حيث ولّد ذلك صراعا طويل الأمد بين اللسانيات العربية الأصيلة واللسانيات الوافدة، ولهذه اللحظة ما تزال اللسانيات العربية منشغلة بالسؤال المتكرر:أ نكتفي باللسانيات العربية الأصيلة؟ أم نتعداها إلى لسانيات وافدة حديثة ومعاصرة لها من الوسائل ما يكفي لمعالجة مجمل القضايا اللسانية الآنية وغيرها؟وغيْر هذين الفريقين برز فريق ثالث، محاولا إرضاء الطرفين، بالجمع بين أصولهما؛ سواء بمراعاة خصوصية كل منهما، أم بعدم مراعاة ذلك.

نروم من خلال هذه المقالة تشخيصَ أهم العوامل المسْهمة بشكل رئيس في تكريس هذا الصراع على المنوال الذي هو عليه، من أجل تبديد ركامه بين الطرفين والتقليل من وطأته، ليتيسّر لنا إيجاد قنطرة حوار بينهما وتأسيس أرضية إبستمولوجية تتأتى بتحقق شرط معرفتهما؛ فهما وتقويما.

واللسانيات العربية بقُطبيها؛ الأصيل والوافد في حاجة ماسة إلى نظرة متفحصة قويمة متكاملة ينشد الناظر فيها العلمية، وهي بدورها تقتضي "أن تبرر باستقلال عن ذاتية أي عمل كان، وتكون مصحوبة بتبرير موضوعي قابل للمراقبة والفهم ما دام "العلم منظومة؛ أي أنه نسق، والنسق System كل متكامل يتميز بأن لكل جزء من أجزائه موضعه المحدد، وعلاقاته المنطقية المحددة التي تربطه بالأجزاء الأخرى."[1]ولا سبيل إلى تحقيق التقويم المنشود في اللسانيات العربية الأصيلة مثلا، إلا إذا توسلنا مناهج اختصت بها، لا يمكن استنباطها إلا من داخلها، ما دامت تشكل الوسائل التي بُنيت بها؛ سواء على مستوى المضامين، أم الأدوات والوسائل الموصلة إلى هذه المضامين، ولا ضير في الاستعانة بمناهج اللسانيات الوافدة بعد النظر[3]فيها حتى تناسب مجالنا التداولي استعمالا وتفاعلا.

ومتى لم يستقر لدى الناظر اللساني حقيقة النظر في قطبي اللسانيات العربية بالكيفية التي تراعي خصوصيات كل منهما، يكون نظره مجرد ادعاء على أحدهما أو عليهما معا؛ لأن النظر في المنقود اللساني يتطلب معرفته معرفة حقيقية، عكس ما تشهده الساحة اللسانية العربية المعاصرة من أعمال نقدية مؤسَّسَة على قطيعة معرفية قلقة لا تستجيب إلى تطلعات البحث العلمي، دفعت البحث اللساني إلى منزلق يصعب معه إيجاد أرضية حوار تُقلص هوة الخلاف بين اللسانيات العربية الأصيلة واللسانيات الوافدة في ثقافتنا. ولما رأينا هذه الأعمال اللسانية النقدية تقبل بهذا الوضع المتردي الذي هي عليه، حرّك ذلك فينا البحث عن السبل الكفيلة بإخماد الصراع الطويل الأمد بينهما، والبحث عن الأسباب المباشرة التي بإمكانها إرساء أرضية حوار حقيقية تسهم في إنتاج معرفة لسانية عربية خالصة ومواكِبة.

وبعد النظر في حال اللسانيات العربية الحديثة والمعاصرة تَأكّد لدينا أن هذا الصراع المعمر طويلا لم يأت من فراغ، بل جاء نتيجة عوامل أو أسباب وجيهة نجمل أهمها فيما يأتي:

أولا:التلفيق ومحاولة التوفيق بين أصول اللسانيات العربية الأصيلة ومقولات النظريات الوافدة.

ثانيا:الاكتفاء باللسانيات العربية الأصيلة دون طلب معرفة غيرها.

ثالثا: الاستمساك باللسانيات الوافدة ولفظ ما سواها.

رابعا:اقتحام تقويم اللسانيات العربية الأصيلة مع عدم معرفتها أو قصور في فهمها.

---

[1]Popper Karl, "La logique de la découverte scientifique" Payot-Paris, 1973,P:41.

[٢]يمنى طريف الخولي، "مفهوم المنهج العلمي"، مؤسسة هنداوي، ط:٢٠٢٠م، ص:٣٦.

[٣]وظفنا مفهوم "النظر" بدل "القراءة"؛ لأن الأول مأصول ومتمكن، والثاني منقول قلق ومقترن بالتأويل. انظر مؤلف "سؤال المنهج: في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد"، طه عبد الرحمن، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، ط:١، ٢٠١٥م ص:٤٥.

المطلب الأول: التلفيق ومحاولة التوفيق[١] بين أصول اللسانيات العربية الأصيلة ومقولات اللسانيات الوافدة.

تعد محاولة التوفيق بالكيفية التي جاءت عليها في اللسانيات العربية الحديثة أحد الأسباب الهامة التي ساهمت بشكل كبير في احتدام الصراع بين اللسانيات العربية الأصيلة واللسانيات الوافدة، وزادت من منسوب التنافر في ثقافتنا الفكرية واللسانية على وجه التحديد، بعد الاحتكاك بالثقافة الأوروبية والأمريكية والروسية وغيرها؛ أيْ محاولة التوفيق بين الفكر اللساني العربي واللسانيات الوافدة، وهو "الاتجاه الأكثر حضورا ونفوذا في حقل الدراسات العربية الحديثة".[٢]

إذ يمكن عدّه طرفا ثالثا يسعى إلى إيجاد حل بين كل من طرفي الصراع، بناء على هدم الفروق ومحاولة المزج بينهما من دون تهميش أو تعطيل لأحدهما، لذلك ارتأى هذا الفريق "أن يعمل على إيجاد نظريات ونماذج صالحة لوصف اللغة العربية، انطلاقا من النظريات اللغوية القرائية العربية وترميمها على ضوء الدراسات اللسانية الحديثة"[٣] ويتأتى ذلك عن طريق القراءة؛ أيْ "قراءة منهجية معاصرة تقتضي بالضرورة ضمنيا استيعابا مزدوجا: طرفه الأول في التراث، وطرفه الآخر في العلم الحديث. ومتى توفرت المعادلة بطرفيها تسنى إجراء القراءة الجدلية التي هي بالضرورة قراءة نقدية واعية تستند أساسا إلى التفاعل العضوي."[٤]

ويفهم من ذلك أن الوسيلة الوحيدة لتحقيق لسانيات عربية حقيقية هي "عدم تناول التراث بنظرة سلفية ضيقة"[٥]ولا نظرة "استشراقية" حد الاستلاب الفكري[٦]والثقافي؛ وهذا المبدأ انطلقت منه اللسانيات التوفيقية صوب شق نهج مرضٍ لكلا طرفي الصراع في اللسانيات العربية، غير أن السؤال الذي يحضر في هذا السياق، كيف استطاعتْ اللسانيات التوفيقية أن تكون سببا رئيسا من أسباب تعميق الأزمة بين اللسانيات العربية الأصيلة واللسانيات الوافدة؟ وقبل ذلك هل يمكن الحديث عن لسانيات عربية توفيقية مستقلة؛ بأسسها ومتميزة عن الطرفين؛ الأصيل والوافد؟

إن السؤالين معا، يشكلان قاعدة يمكن الاستناد إليها من أجل إرساء تصور واضح عن هذا الاتجاه، غير أن الأول منهما يهمنا في هذا السياق أكثر من لاحقه، لكونه يتصل مباشرة بما نحن بصدده.أما السؤال الثاني: أي ما له علاقة باستقلال الاتجاه التوفيقي عن سابقَيه- فسيأتي وقت بسطه ومناقشته في حينه.

إن الإجابة عن السؤال الأول رهين بالانطلاق من النتائج التي توصل إليها هذا الاتجاه في ساحة اللسانيات العربية الحديثة،ولعل أهمها:

-أن هذا الاتجاه جاء نتيجة صراعات آنية[٧]وبذلك لا يبحث إلا عن أجوبة آنية فقط، دون أن تكون رئيسة ومحورية.

---

[١] لا نقصد بالمنهج التوفيقي في هذا السياق ما له علاقة ب"المرحلة الزمنية التي تحدد من القرن العاشر قبل الميلاد إلى حدود القرن الثامن عشر من الميلاد... وأطلق عليها هذه التسمية لكونها سعت إلى التوفيق بين البحث في اللغة وقضايا فكرية أخرى"، انظر كتاب "في اللسانيات العامة"، مصطفى غلفان، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط:١، ٢٠١٠م، ص:١٠٩.(بتصرف). وإنما نقصد باللسانيات التوفيقية، اللسانيات العربية التي حاولت الجمع بين أصول اللسانيات العربية الأصيلة وأصول المناهج اللسانية الوافدة.

[٢] "في اللسانيات العامة" ص:١٠٥.

[٣] أحمد المتوكل "نحو قراءة جديدة لنظرية النظم عند الجرجاني" مجلة كلية الآداب، الرباط، عدد:١، ١٩٧٧م، ص:٩١.

[٤] المسدي عبد السلام، "مباحث تأسيسية في اللسانيات"، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط:١، ٢٠١٠م، ص:٢٨.

[٥] نفسه، ص:٢٨.

[٦] مصطلح وظفه إدوارد سعيد في كتابه "الاستشراق" ويستعمل للدلالة على حالة التبعية الثقافية ونقدها، وهذا لا يعني أنه أول من تداوله في مشروعه الفكري النقدي. ولمزيد اطلاع انظر مقدمة كتاب "قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي"، وائل حلاق، ت: عمرو عثمان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط:١-٢٠١٩م.

[٧] أخذنا مصطلح "صراعات آنية" من كتاب "قصور الاستشراق" لوائل حلاق، مصدر سابق، ص:٣٠. ولعله بدوره أخذه من كتاب " The Subject and Power" للكاتب"Michel Foucault" ميشيل فوكو، ترجمه إلى الإنجليزية "Robert Hurley" -"New York: New Press -١٩٩٤" pp: 326-348.

-الركون في أغلب الحالات إلى اللسانيات العربية الأصيلة، أو الارتماء نحو المناهج اللسانية الوافدة، ومن أمثلة ذلك "تمام حسان" في مرحلته الأولى،[١]إذ بدأ يغيّر وجهته نحو اللسانيات الأصيلة بعد سنة ١٩٨١م حيث قال: "تجد في الرجوع إلى ماضيك الماثل بين السطور راحة وشوقا"[٢]وتحديدا بعد مقاله "التراث اللغوي العربي: نظرية نقدية"[٣] أما النوع الثاني المتخلي عن "مبدأ التوفيق المعرفي ثم انضم إلى اللسانيات الغربية، يمكن أن نذكر أحمد المتوكل الذي بدأ مشروعه اللغوي سنة ١٩٨٢م بالبحث في التراث اللغوي مستهدفا الكشف عن نظرية اللغويين العرب من أجل مقارنتها بالنظريات اللسانية المعاصرة وإدماج تحاليل الأولى في الخطاب اللساني المعاصر...غير أنه سرعان ما تخلى عنه ابتداء من ١٩٨٥م نحو نظرية النحو الوظيفي."[٤]

-التوفيق اللغوي بين الطرفين في حقيقته ميل إلى أحدهما، واستئناس بالآخر.

-وجود صعوبة كبيرة في تصنيف الأعمال اللسانية النقدية لأصحاب هذا الاتجاه؛ فقد يُدرج اللساني الواحد عند ناقد معين ضمن الاتجاه التوفيقي، واللساني نفسه عند ناقد آخر يجره إلى اتجاه حداثي أو تراثي.[٥]

هذه النتائج وغيرها -مما لم نذكره- تؤكد أن الاتجاه التوفيقي في اللسانيات العربية لا يمكن بحال من الأحوال الاستناد إليه، واعتماده منهجا مستقلا له قدرة على إيجاد حلول مناسبة لأزمة اللسانيات العربية، مادامت ملابسات ظهوره لا تستند إلى مبادئ ومقولات واضحة المعالم على مستوى الممارسة والتنزيل كذلك؛ إذ يصعب الجمع بين أساسيات اللسانيات العربية الأصيلة وأصولها مع قواعد اللسانيات الوافدة ومناهجها، وإذا سلمنا جدلا بقَبول ذلك فبأيّ المقولات اللسانية الوافدة نأخذ في ظل تنوع المدارس اللسانية؛ بنيوية وتوليدية ووظيفية وفروعها،مع عدم وجود أرضية حوار وتنسيق بين ممثليها-عندنا- على وجه الخصوص؟

المطلب الثاني: الاكتفاء باللسانيات العربية الأصيلة دون طلب معرفة غيرها.

يسعى أصحاب هذا الرأي إلى الانغلاق على اللسانيات العربية الأصيلة والاكتفاء بما وصلنا منها فحسب، دون فتح باب الابتكار والإبداع اللذين في أصليهما سمة مميزة للإنسان عن غيره من المخلوقات، وكل عمل لساني يسعى إلى الاكتفاء بالموروث اللساني يسقط-من حيث لا يعلم- في الجمود الفكري الذي هو آفة أشد خطرا على الفكر من غيره، ولا يمكن لعاقل الأخذ به والدعوة إليه لكونه يقتل أنفع ما فيه وهو عقله، وليس معنى ذلك نهج القطيعة المعرفية[٦]مع اللسانيات العربية الأصيلة؛ مادامت لغة أو معادلة لا تسمح للغادي والرائح بحلها، بل تحتاج إلى من يجيد ويمتلك القدرة على تقويمها التقويم الصحيح، دون

---

[١]عد إلى مشروع تمام حسان في مرحلته الأولى تجد أن مؤلفيه: "مناهج البحث في اللغة" و"اللغة: بين المعيارية والوصفية" تَمثَّلا المنهج الوصفي السوسيري باختلاف فروعه اللسانية تمثلا كاملا تقريبا، حتى وإنْ صرح "بالأخذ بنصيب من التراث العربي يوحي إليه بالاعتزاز، ونصيب من الثقافة المعاصرة يمنحه العزة." انظر: تقديم مؤلَّف "مناهج البحث في اللغة"، ط:٢- ١٩٧٤م، دار الثقافة.

[٢]تمام حسان، "مقالات في اللغة والأدب"، ط:١-١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، عالم الكتب، القاهرة،ج:١، ص:٥، وانظر إلى المقدمة في مجملها يتبدى لك مراحل مشروع تمام حسان اللغوي بالتفصيل.

[٣]نفسه، ص:٦.

[٤]محمد الأوراغي، "نظرية اللسانيات النسبية: دواعي النشأة"، دار الأمان، الرباط، ط:٢٠١٠م، ص:٦٨ (بتصرف).

[٥]من الأمثلة على ذلك أحمد المتوكل، أدرجه الأوراغي ضمن الحداثيين بعد مرحلة ١٩٨٢م، انظر المرجع السابق والصفحة نفسها، ثم جاء حافظ إسماعيل علوي وعده من اللسانيين التوفيقيين يقول بصريح العبارة: "وأبرز من يمثل الاتجاه التوفيقي في الثقافة العربية أحمد المتوكل"، انظر مقال "تدبير منطق الاختلاف بين الخطاب اللغوي العربي القديم والخطاب اللساني الحديث، مجلة "اللسان العربي" الرباط، العدد٧٥، ٢٠١٥م، ص: ٢٦٩.

[٦]مصطلح "القطيعة المعرفية" "La Rupture épistémologique" مصطلح استعمله المفكر الفرنسي غاستون باشلار Gaston Bachelard في حقل الإبستيمولوجيا؛ ويعني به "أن التقدم العلمي، مبني على أساس قطع الصلة بالماضي، فهو شق طريق جديد لم يتراء للقدماء، ولم يرد لهم بحال، بحكم حدودهم المعرفية الأسبق، ومن ثم الأضيق والأكثر قصورا، والمثال الأثير لبشلار "المصباح الكهربي"، فهو ليس استمرارا لأساليب الإضاءة الماضية التي تقوم على الاشتعال والاحتراق، بل قطيعة لكل هذه الأساليب، لحد الشروع في مرحلة تعتمد= الإضاءة فيها على الحيلولة دون أي اشتعال أو احتراق، فهي خلق وإبداع جديد تماما" انظر ص:٢٢، من كتاب "مشكلة العلوم الإنسانية: تقنينها ومشكلة حلها" يمنى طريف الخولي" مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط:٢٠١٤م. وانظر كتاب "العقلانية التطبيقية" كذلك، لجاستون باشلار، ت: بسام الهاشم، ص: ١٩٥، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد سنة ١٩٨٧م.

تساهل في إلقاء الأحكام تلو الأحكام إن جهلا به، أم ضعفا بتحصيل الأدوات والوسائل التي أُنتج بها هذا الموروث اللساني، "والتعامل معه كان وسيبقى مطلوبا كلما أردنا أن نجدد ثقتنا بقدراتنا ونؤصل مصادر استلهامنا؛ وليس معنى بقاء التعامل مع التراث هو حفظ ما فيه على الوجه الذي كان به، من غير اعتبار لمقتضى الماضي ولا لمقتضى الحاضر، نظرا لأن هذا الحفظ ولو سعينا إليه ما سعينا يظل غير ممكن".[١] ويصعب معه تقبل ما يُذاع عن اكتمال البحث في المستويات اللغوية العربية باختلافها؛ نحوية وصرفية وصوتية وهلم جرا، في الفترة التي تعد الشرارة الأولى لهذا الصراع المعمر طويلا، والناتج في أصله عن التلاقح المعرفي مع الثقافات الوافدة، والغربية منها على وجه التحديد، لكون ذلك لا يزيد الصراع إلا احتداما بالحال الذي هو عليه بين اللسانيات العربية الأصيلة واللسانيات الوافدة، وأضف إلى ذلك قتل جانب روح الإبداع والاجتهاد في اللسانيات العربية عامة.

لذلك لا مناص من الاستجابة إلى النظريات اللسانية الوافدة، استجابة لا تسلب اللسانيات العربية الأصيلة خصوصيتها، والاقتراض منها متى دعت الضرورة إلى ذلك، إلى حين استحداث المقترِض ما يضاهي ما اقترض. أما الموروث اللساني "فالإنسان لا يختار إرثه كما لا يختار ماضيه، وإنما يجره معه جرا، وأكثر من ذلك يتمسك به ويحتمي داخله عندما يجد نفسه معرضا لأي تهديد خارجي".[٢]

المطلب الثالث: الاستمساك بالنظريات اللسانية الوافدة ولفظ ما سواها.

يمكن عدُّ هذا السبب أحد الأسباب الرئيسة، لما أحدثه من ضجة واسعة النطاق داخل الأوساط العربية فور احتكاكها باللسانيات الوافدة،وهي مواقف يمكن أن نطلق عليها "مواقف عصرانية تدعو إلى تبني النموذج الغربي المعاصر بوصفه نموذجا للعصر كله، أي النموذج الذي يفرض نفسه تاريخيا كصيغة حضارية للحاضر والمستقبل".[٣]

يأتي هذا السبب مؤكدا حقيقة لا مناص منها، وهي: قطع الصلة بالماضي جملة إذ "لا ضرورة منهجية ولا منطقية تفرض الرجوع إلى فكر الماضي وتصنيفاته ومفاهيمه لمعالجة مادة معينة"[٤] وهذه النظرة المقوضة للسانيات العربية الأصيلة، ساهمت بشكل كبير في تأجيج الصراع واستمراره بالحال الذي هو عليه، إذ لم يكلف اللسانيون-أصحابُ هذا الرأي-أنفسهم اقترابا من اللسانيات الأصيلة ولا مساءلتها، وتعاملوا بمنطق الإلغاء التام للماضي. وكل لساني التفت إلى التراث اللساني، باحثا فيه عن آليات أو طرق موصلة إلى دراسة واقع لغته لا يعتد بما جاء به أبدا، لأن "جل اللسانيين العرب لم يأتوا بالجديد إلا من درس منهم في الغرب، واشتغل على اللهجات"[٥] فأول شرط تشترطه اللسانيات العربية الوافدة لدراسة العربية وواقعها، هو الدراسة في الغرب والتمكن التام من مناهجه وأدوات اشتغاله، من أجل تفسير قضايا وظواهر لغوية، وهو من الأسباب التي جعلت إشكالية التراث اللساني تزيد تأزما من نواح عدة، أهمها:

-الاستعلاء على دراسة اللسانيات العربية الأصيلة بعدم النظر فيها أبدا.

-الاشتغال بآليات استهلاكية[٦]قصدالنظر في اللسانيات الأصيلة.

---

[١]طه عبد الرحمن، "حوارات من أجل المستقبل" ط:٢، ٢٠٠٨م، منشورات الزمن، ص:١٢.

[٢]"التراث وتحديات العصر: الأصالة والمعاصرة"،ندوة فكرية، ط:٢، ١٩٨٧م- مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص:٣٤، وهي في أصلها مداخلة لمحمد عابد الجابري وبعض المفكرين في الوطن العربي، وقد طُبعت الندوة إلى جانب مقالات أخرى في كتاب بعنوان" إشكالية الفكر العربي المعاصر" الفصل الأول منه، ط: ٧، مركز دراسات الوحدة العربية،٢٠١٦م.

[٣]المرجع نفسه، ص:٣١.

[٤]الفاسي الفهري، "اللسانيات واللغة العربية" الكتاب الأول، ط:٣، ١٩٩٣م، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ص:٥٢.

[٥]الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية، ص:٥١، سبق ذكره.

[٦]مصطلح وظفه طه عبد الرحمن في مشروعه الفكري، وجاء مرادفا للمصطلحين الآتيين: "الآليات الفرعية" و"الآليات الفوقية"، ويقصد بها الأدوات المنقولة من الغير، وعكسه "الآليات الأصلية". انظر كتاب "تجديد المنهج في تقويم التراث"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط:٢، ص:٢٤.

-الاستناد إلى تراث الغير لافتقار اللساني إلى مستند لذاته "فمثلا الذي يدعو باسم الحداثة إلى الكف عن الرجوع إلى التراث، وإلى الأخذ بالمعرفة الحديثة كما جاء بها الغرب، فإن دعوته لا تعدو كونها تستبدل مكان الانشغال بالتراث الأصلي الانشغال بتراث أجنبي، ذلك أن المعرفة الحديثة كما هو معلوم تجد سندها في التراث الغربي".[١]

وهذه السمات التي نتجت عن اللسانيات العربية الوافدة، واستمساكها بالمناهج اللسانية الوافدة ليست نهائية، بل هناك سمات أخرى سيأتي ذكرها في حينها مع تفصيل ومناقشة لما ذكرنا منها. ونصل بعد ذلك إلى أن السبيل الوحيد لنفع العربية ليس الارتماء على المعرفة الوافدة وحدها، وإنما العمل على جعل اللسانيات الحديثة والمعاصرة قنطرة إلى اللسانيات الأصيلة، ولا يتحقق ذلك إلا بالنظر إليها على أنها مرحلة تأسيس وامتداد؛ من أجل فهمها وتقويمها التقويم القويم.

المطلب الرابع: اقتحام تقويم اللسانيات العربية الأصيلة مع عدم معرفتها أو قصور فيفهمها.

إن التهافت على اللسانيات العربية الأصيلة دون فقه بمضامينها جيدا، مع شرط معرفة الأدوات التي ساهمت في بناء هذه المضامين، ومراعاة العلوم المساعدة في إنتاج هذا الموروث اللساني، يؤدي من غير شك إلى فُهوم غير سليمة للسانيات الأصيلة، وهو ما ينتج عنه تقويم أعوج غير مبصر بحقيقة ما ينقده، ويزيد من استفحال مشكلة الصراع الطويل الأمد بين اللسانيات الأصيلة والوافدة بما هي عليه حاليا.

إن ولوج عالم اللسانيات العربية الأصيلة قصد تقويمها أو النظر فيها على الوجه الأكمل، لا يتم إلا إذا راعينا جملة من الشروط، على رأسها:

-محاولة فهم اللسانيات العربية الأصيلة من داخلها "فلا سبيل إلى التجديد والتحديث إلا من داخل التراث نفسه، وبوسائله الخاصة، وإمكاناته الذاتية أولا"[٢].

-استحضار جانب التداخل فيها بنوعيه: داخلي بين العلوم اللغوية الأصيلة نفسها، وخارجي بين الأصيلة منها والمساعدة، لأن "اللسانيات العربية-في نظرنا- تنقسم إلى أصيلة ووافدة فقط، والأصيلة منهما تنقسم بدورها إلى قسمين: علوم لغوية محكَمة؛ وهي كل العلوم التي تتصل مباشرة باللغة، سواء من حيث أصواتها أم من حيث بنية مفرداتها أم من حيث تركيبها ودِلالتها أم من حيث فقهها، أم بجوانب تتعلق بأصلها وهلم جرا. وعلوم مساعدة؛ وهي كل العلوم التي تداخلت مع العلوم اللغوية المحكَمة خدمة لها، ولا تتصل مباشرة باللغة؛ بحيث تكون متعلقة بمجالات أخرى مثل المنطق والفلسفة وأصول الفقه والعروض، وغيرها من العلوم التي يمكن أن نطلق عليها العلوم المساعدة."[٣]

-تمحيص الوسائل والأدوات المنقولة من الغير والنظر فيها قبل تنزيلها على اللسانيات العربية الأصيلة، مع "تبين جانب النسبية والمحلية فيها"[٤]حتى لا يسقط الناقد اللساني في تقليد حذافيري لأدوات غيره ويسطوَ عليها.

-مراعاة الأصل التداولي[٥]فيها "لأن المضمون التراثي يخضع لخصوصية المجال التداولي".

---

[١]"حوارات من أجل المستقبل" ص: ١٢.

[٢]محمد عابد الجابري، "نقد العقل العربي:بنية العقل العربي"، المركز الثقافي، بيروت، ط:١، ١٩٨١م، ص:٥٨٦.

[٣]إبراهيم عيشي، "مفهوم الخدمة في اللسانيات العربية الأصيلة؛ علم المنطق نموذجا"، مجلة اللغة العربية للأبحاث التخصصية، ماليزيا، المجلد السابع، العدد الثاني، أكتوبر ٢٠٢٣م. يبرز هذا المقال تصورنا بشكل واضح للسانيات العربية الحديثة؛ سواء من حيث تقسيماتنا أم الجهاز المفهومي الخادم لهذه التقسيمات وهلم جرا.

[٤]"حوارات من أجل المستقبل"، ص:١٢.

[٥]التداولية ترجمة للمصطلح الإنجليزي Pragmatics؛ وهو من المصطلحات التي وجد اللغويون صعوبة كبيرة في الإحاطة بكنهه ومعناه، غير أننا اعتمدنا تعريف جورج يول George Yule إذ يقول: "التداولية هي دراسة المعنى الذي يقصده المتكلم، أو هي دراسة المعنى السياقي، أو هي دراسة كيفية إيصال أكثر مما يقال"، انظر كتاب "التداولية"، ت: قصي العتابي، ط:١ ٢٠١٠م، الدار العربية للعلوم ناشرون، ص:١٩ (بتصرف). غير أننا بالاستعمال الذي وظفناه نقصد به "القدرة على وضع منهجية التقويم بالاستناد إلى ما اختص به هذا التراث من أصول وقواعد نافعة، ولا يتأتى ذلك إلا بالاجتهاد في استنباط هذه المنهجية من هذا التراث"، لمزيد من الاطلاع انظر مؤلف: "سؤال المنهج: في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد"" طه عبد الرحمن، ط:١، ٢٠١٥م، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت. ص:٦٢ (بتصرف).

ومتى لم يستطع الناقد اللساني تمثّل هذه الشروط، يصير ضرر تقويمه أكبر من نفعه، ويزيد من هوة الإشكالية وطبيعة الصراع القائم بين اللسانيات العربية الأصيلة والوافدة، كما تظل نتيجة ذلك محسومة ومتمركزة في إعلان "القطيعة المعرفية" مع الموروث اللساني؛ سواء سلك أصحابه لتبرير ذلك مسلك العقلانية[1]أم التاريخانية[2]أم الموضوعية.[3]

خاتمة:

وتأسيسا على ما سبق ذكره، فإن الأسباب التي آثرنا بسطها تعد -في نظرنا- عوامل رئيسة أسهمت بشكل كبير في زيادة حدة التنافر بين اللسانيات العربية الأصيلة واللسانيات الوافدة، وصَل حدّ القطيعة من الجهتين؛ فإذا كانت اللسانيات العربية الوافدة قد أعلنت القطيعة المعرفية مع الموروث اللساني دون النظر فيه، فإن اللسانيين المكتفين بالموروث اللساني قد شاركوا من جهتهم في قطيعة معرفية أيضا؛ من حيث عدم قَبول ما وفد إلينا من نظريات لسانية، وفي الحالتين معا نكون أمام قطيعة معرفية سواء بالقطع مع اللسانيات العربية الأصيلة أم بالقطع مع اللسانيات الوافدة باختلاف ضروبها.

وهنا تبرز أهمية السعي نحو التنسيق بين اللسانيين، والعمل على إرساء أرضية حوار حقيقية بين طرفي الصراع، بعدما شخصنا أهم الأسباب التي أحدثت هذه الأزمة المعمِّرة طويلا في تاريخ اللسانيات العربية الحديثة والمعاصرة. ومتى لم يسعَ اللسانيون-عندنا- إلى تحقيق ذلك، ستسيطر الفردانية المقلقة على الساحة اللسانية العربية، وتسود العشوائية النقدية في تسيير المشهد اللساني العربي، لأن الاكتفاء باللسانيات العربية الأصيلة دون طلب معرفة غيرها، أو الاستمساك باللسانيات الوافدة والاستعلاء على غيرها، آفتان لا يسهمان البتة في الخروج من التيه والتشتت اللذين تعيشهما اللسانيات العربية، بل يزيده تكريسا واستمرارا بحدة أشد مما هي عليه، أما محاولة التوفيق بين أسسهما-اللسانيات الأصيلة والوافدة- فهو آفة أشد من سابقيه؛ لأنه تلفيق آني فرضته ظرفية بعينها؛ إذ لم يكن مبنيا أبدا على تصورات مؤسَّسة على نظرة متفحصة وقويمة.

لائحة المصادر والمراجع والمجلات العلمية:

-أحمد المتوكل "نحو قراءة جديدة لنظرية النظم عند الجرجاني" مجلة كلية الآداب، الرباط، عدد:١، ١٩٧٧م.

-تمام حسان، "مقالات في اللغة والأدب"، عالم الكتب، القاهرة ط:١-١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م،ج:١.

-تمام حسان، "مناهج البحث في اللغة"، دار الثقافة ط:٢- ١٩٧٤م.

-جاستون باشلار، "العقلانية التطبيقية"،ت: بسام الهاشم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد سنة ١٩٨٧م.

-جورج يول: George Yule، "التداولية"، ت: قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون ط:١-٢٠١٠م.

[1]من أهم متزعمي الاتجاه العقلاني في الفكر العربي محمد عابد الجابري، حيث سعى في مشروعه إلى إرساء دعائم العقلانية في الثقافة العربية، وذلك ب"التعامل مع الغرب نقديا، أي الدخول مع ثقافته التي تزداد عالمية في حوار نقدي؛ وذلك بقراءتها في تاريخيتها وفهم مقولاتها ومفاهيمها في نسبيتها والتعرف إلى أسس تقدمها، والعمل على استنباتها في تربتنا الثقافية". انظر كتاب "إشكالية الفكر العربي المعاصر"،محمد عابد الجابري، ط:٧، مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠١٦م ص:٤٣-٤٤.

[2]تقوم على أساس أن "النزعة التاريخية" تنفي أي تدخل خارجي في تسبب الأحداث التاريخية"، وأضف إلى ذلك كونها تَعتبر "كل خروج عن المقتضيات الراهنة يعد سقوطا في "اللا تاريخانية"" ولمزيد اطلاع انظر كتاب "العرب والفكر التاريخي" لعبد الله العروي، دار الحقيقة:١٩٧٣م بيروت، ص:١٢٦، (بتصرف).

[3]تعد الموضوعية من السمات الأساسة في التفكير العلمي، والمراد بها "أن القضايا التي تُبحث، والنتائج التي تستنبط، يجب أن تكون قابلة للملاحظة والتجربة". انظر كتاب "مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة" لنعمة رحيم العزاوي، مطبعة المجمع العلمي، بغداد، سنة:١٤٢١ه-٢٠٠١م، ص:٨٠.

-حافظ إسماعيل علوي،"تدبير منطق الاختلاف بين الخطاب اللغوي العربي القديم والخطاب اللساني الحديث"، مجلة "اللسان العربي"، العدد٧٥، سنة ٢٠١٥م، الرباط.

-طه عبد الرحمن، "تجديد المنهج في تقويم التراث"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط:٢.

- طه عبد الرحمن، "حوارات من أجل المستقبل" منشورات الزمن، ط: ٢-٢٠٠٨م.

-طه عبد الرحمن،"سؤال المنهج: في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد"، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، ط:١، ٢٠١٥م.

-عبد الله العروي، "العرب والفكر التاريخي"، دار الحقيقة، بيروت ١٩٧٣م.

-عيشي إبراهيم، "مفهوم الخدمة في اللسانيات العربية الأصيلة؛ علم المنطق نموذجا"، مجلة اللغة العربية للأبحاث التخصصية، ماليزيا، المجلد السابع، العدد الثاني، أكتوبر ٢٠٢٣م.

-الفاسي الفهري، "اللسانيات واللغة العربية" الكتاب الأول، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ط:٣، ١٩٩٣م.

- محمد الأوراغي، "نظرية اللسانيات النسبية: دواعي النشأة"، دار الأمان، الرباط، ط:٢٠١٠م.

-محمد عابد الجابري، "إشكالية الفكر العربي المعاصر"، ط: ٧، مركز دراسات الوحدة العربية،٢٠١٦م.

-محمد عابد الجابري، "نقد العقل العربي:بنية العقل العربي"، المركز الثقافي، بيروت، ط:١، ١٩٨١م.

- المسدي عبد السلام، "مباحث تأسيسية في اللسانيات"، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط:١، ٢٠١٠م.

-مصطفى غلفان، "في اللسانيات العامة"، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط:١، ٢٠١٠م.

-نعمة رحيم العزاوي، "مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة"، مطبعة المجمع العلمي، بغداد، سنة:١٤٢١ه-٢٠٠١م.

-وائل حلاق "قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي"، ت: عمرو عثمان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط:١-٢٠١٩م.

-يمنى طريف الخولي، "مشكلة العلوم الإنسانية: تقنينها ومشكلة حلها"، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط:٢٠١٤م.

- يمنى طريف الخولي، "مفهوم المنهج العلمي"، مؤسسة هنداوي، ط:٢٠٢٠م.

-Popper Karl, "La logique de la découverte scientifique" Payot-Paris, 1973.

- Michel Foucault, "The Subject and Power", T: Robert Hurley, New York, New Press ١٩٩٤.